استراتيجية المقاومة في فكر الامام موسى الصدر

العميد الدكتور كميل حبيب *

* عميد كلية الحقوقوالعلوم السياسية والادارية

المقاومة، كسلوك وطني نهضوي وكقيمة انسانية، شكلت الركيزة الابرز في فكر الامام موسى الصدر الاستراتيجي. وكلمة استراتيجيا تعني وجود خطة شاملة، متماسكة، بعيدة عن الانفعال والارتجال. والاستراتيجية، حتى تضمن نجاحها، تحتاج إلى رؤية واضحة، وقراءة واقعية، ونظرة ثاقبة، وقيادة استثنائية ومؤمنة، اصيلة في مجتمعها، وانسانية في تطلعاتها. وهذه الصفات كلها اختزلها امام لبنان، الامام موسى الصدر في شخصيته الكبيرة قيمة وقامة.

اليوم، وبعد أكثر من ثلاثة عقود على تغيّبه في سجن نظام يدعي الهوية العربية، لا يزال الامر متروكاً للأجيال القادمة لأستكشاف مستقبلاً سر الامام المقدس. وانني على ثقة بأن الامام العالِم بما صنعه فكره على ارض الوطن من انتصارات متتالية، لا تزال يداه مكبلتين تنتظران من يفك الاغلال عنهما ليعود الى الوطن الذي من اجله سافر في رحلة رسمية ولمّا يعود بعد!. لكن الإمام علّمنا « **إن الصبر على الاذى ... جهادٌ في سبيل الله.** »

وبالعودة الى استراتيجية المقاومة في فكر الامام الصدر تجدر الاشارة الى ان تلك الاستراتيجية قدمها الامام في سياق مشروع استنهاض اجتماعي واقتصادي وسياسي، ومن ثم عسكري مقاوم ضد الفساد والظلم الداخلي من جهة، والخطر الصهيوني من جهة اخرى. فسياسة الحرمان والخطر الصهيوني شكلاً سوياً اعتداء على كرامة الوطن والانسان. اما مقاومتهما فواجب مقدس وتنفيذٌ لأحكام سماوية.. وهكذا، ما ارتبط اسم قائد مؤمن بالمقاومة كما ارتبط اسم الامام موسى الصدر. وهذا الأمر بديهي طالما سمعنا سماحته يردد في أكثر من مناسبة : **« اذا كان لباسي الديني سيمنعني من العمل الفدائي للدفاع عن الوطن فسأتركه فوراً .»**

هناك العديد من الدراسات التي سلطت الضوء على فكر الامام المقاوم، نذكر منها:

1- فلسطين في وجدان الامام موسى الصدر.

2- ثلاثية المقاومة والحرية والحوار في مشروع موسى الصدر.

3- الامام موسى الصدر والمجتمع المقاوم.

4- الرؤية الصدرية للمقاومة والحرية.

5- الامام الصدر سيد المقاومة.

6- وليبقى السلاح زينة الرجال.

يقول المؤرخ الفرنسي مارك بلوك : **« الناس ابناء زمانهم أكثر مما هم ابناء آبائهم. »** والزمان في حضرة الامام هو زمان فلسطين. لقد اعتبر الامام ان فلسطين هي قضية العرب الاولى، رابطاً في الوقت عينه بين نجاح المشروع الصهيوني في فلسطين وبين محاولات اسرائيل القضاء على صيغة التعايش في لبنان. ففي مقابلة صحافية في فرنسا قال الامام : « **إن مأساة فلسطين لطخة سوداء في الضمير العالمي، وان نضال الشعب الفلسطيني هو دفاع عن الاديان وعن القدس، وان اسرائيل دولة عنصرية توسعية، وان لبنان بتعايش الاديان فيه ضرورة دينية وحضارية.»** أما الدفاع عن الجنوب وحماية الجنوب فيبقى في نظر الامام دفاع عن وجود لبنان برمته. ففي رسالة وجهها الى اعضاء المجلس النيابي ونشرتها الصحف بتاريخ 1969/1/24 اعلن سماحته:**« ان لبنان دون منطقة الجنوب اسطورة، وان لبنان مع جنوب ضعيف جسم مشلول، وان لبنان دون قوة الجنوب مغامرة تاريخية. »** هذا يعني ان الخطر الصهيوني على لبنان هو خطر شامل على قيمنا وحضارتنا وتاريخنا ومياهنا وانساننا. وانساننا هو ابن جبل عامل الذي قاوم المستعمرين على مر الازمنة والعصور، وشكل الحضن الدافيء لمجاهدي فلسطين، وكان السبَّاق في الدفاع عن وجود لبنان وصيغة وحدة الحياة بين جميع ابنائه.

ان الخطر الصهيوني المحدق بلبنان انطلاقاً من جنوبه يتطلب مواجهة ذات ابعاد متعددة، تبدأ من الحاجة الى اعادة تشكيل الوعي والارادة عند كل مكونات المجتمع اللبناني. فالصراع مع اسرائيل ليس صراعاً ظرفياً محدد بزمان ومكان، او صراع عسكري فقط، او إنَّه يخص مذهباً دون آخر، او انه مسألة عقارية يمكن التفاوض بشأنها. إن اسرائيل، حسب رؤية الامام، **« شر مطلق وخطر على العرب مسلمين ومسيحيين وعلى الحرية والكرامة الانسانية. »** فالصهيونية مشروع يمثل **الباطل كله** ويهدد الانسانية جمعاً، وعلى المؤمنين في لبنان ان يجسدوا **الحق كله.**

وتجسيد الحق يعني بنظر الامام الانخراط في « **معركة حضارية طويلة الامد متعددة الجهات، وطنية، قومية، دينية، انها معركة الماضي والمستقبل، معركة المصير. وهذا يعني ان المطلوب منا الاستعداد ليس لأجل الايام والاسابيع القادمة فقط، ولكنه للسنوات ولعشرات السنين، وعلى جميع الجيهات وبكل المستويات ومع جميع الطاقات...»** وعليه، حذر الامام الصدر من اخطار ثلاثة، مترابطة ومتدرجة: فاحتلال اسرائيل للجنوب يعني تقسيم لبنان، وتوطين الفلسطينين على قسم آخر من اراضيه، وصولاً الى تصفية القضية الفلسطينية.

انطلاقاً من هذه الحيثيات عمل الامام الصدر بشكل دؤوب وعلمي ومبرمج على بناء المجتمع المقاوم. والمقاوم بالنسبة للمجتمع كالبحر بالنسبة للسمكة. ولقد اضاف الامام الى هذا الشعار الماوي شعاراً آخر لامس فيه واقعية الحلم حين خاطب المقاومين قائلاً: « **انكم يا اخواني الثوار مثل موج البحر متى توقفتم انتهيتم...»** وعلى قاعدة **الحركة الدائمة** وليس **المؤسسة الدائمة،** اطلق الامام مشروعه الاستراتيجي لمواجهة الصهيونية، والاقطاعية، والطائفية، ولبناء مجتمع مقاوم في كنف دولة عادلة وقادرة تعمل على اعادة الجنوب الى الوطن. وإلا، أي اذا تخاذلت الدولة، وكانت يومذاك متخاذلة، فعلى الشعب واجب الدفاع عبر تشكيل مقاومة لبنانية. ألاحظتم معي بأن مقولة وحدة الشعب والجيش والمقاومة كانت في فكر الامام منذ اكثر من نصف قرن. يا ليتهم يتعظون!.

حقق الامام في سياق سعيه الى اقامة المجتمع المقاوم عدة انجازات، نذكر منها:

1- اعطاء المرأة دوراً اساسياً في العمل الاجتماعي والتربوي.
2- انشاء مهنية جبل عامل.
3- اسس هيئة « **نصرة الجنوب»** بمشاركة رؤساء الطوائف اللبنانية.
4- أجبر الدولة على انشاء « **مجلس الجنوب»** الذي هدف الى تنمية الجنوب ورفع الحرمان عن لبنان.
5- شارك في الحركة الاجتماعية مع المطران غريغوار حداد في عشرات المشاريع الاجتماعية وساهم في العديد من الجمعيات الخيرية والثقافية.

6- أطلق **افواج المقاومة اللبنانية** (أمل)، الجناح العسكري **لحركة الحرومين،** لأداء دور في تحرير الارض والانسان، **ولأن « مسؤولية تحرير الارض هي مسؤوليتنا وحدنا. »**

7- اعلن رفضه للحرب الاهلية معتصماً في مسجد العاملية بين 1975/6/11 و 1975/6/27ضد العنف والظلم والحرمان والتمييز الطائفي والتمزق الوطني.

8- تقدم بعدة اقتراحات لأصلاح النظام السياسي مثل الغاء الطائفية السياسية، والانماء المتوازن، وتعزيز التعليم الرسمي.

9- اطلق الحوار المسيحي – الاسلامي على قاعدة : « **اجتمعنا من اجل الانسان الذي كانت من اجله الأديان.»**

وبايجاز، فان عمل الامام تمحور حول القضايا التالية:

1- تعزيز الوحدة الوطنية.

2- اصلاح النظام السياسي

3- تحقيق العدالة الاجتماعية

4- بناء مجتمع المقاومة لمواجهة الاطماع الصهيونية في الحجر والبشر والمياه.

هذه الثوابت الاربعة شكلت جوهر رسالة الامام موسى الصدر وقواعد مشروعه الاستراتيجي . ولا بأس من التوجه الى المشاركين في هيئة الحوار الوطني ودعوتهم لقراءة استراتيجية المقاومة في فكر الامام الصدر علَّهم يوفرون على انفسهم واللبنانيين مشقة التفتيش عن استراتيجية للدفاع الوطني تارة حسب النموذج السويسري او اللانموذج. فلقد اثبتت الايام صدقية مقولات الامام، من هذه المقولات – الثوابت نذكر:

1- لا تشكل اسرائيل رافعة لأية طائفة، بل ان خطرها يطال كل اللبنانيين دونما استثناء.

2- **« التعامل مع اسرائيل حرام وغدر وخيانة. »**

3- ان مصلحة لبنان العليا تتقدم على حقوق الطوائف، وبان **طائفة بدون حقوق افضل من طائفة بدون وطن.**

4- إن لبنان يحيا بالاخاء الوطني ويبني استقراره عبر الانتماء القومي وفي دفاعه عن القضية الفلسطينية. « **إن شرف القدس،**« يقول الامام، « **يابى ان يتحرر الا على ايدي المؤمنين الشرفاء ...**»

إن استراتيجية المقاومة في فكر الامام الصدر تحمل مضامين انسانية وقومية ووطنية. فحركة الحرومين التي رسم مبادئها سماحة الامام تنطلق « **من الايمان الحقيقي بالله وبالانسان وحريته الكاملة وكرامته. وهي ترفض الظلم الاجتماعي ونظام الطائفية السياسية، وتحارب بلا هوادة الاستبداد والاقطاع والتسلط وتصنيف المواطنين. وهي حركة وطنية تتمسك بالسيادة الوطنية وسلامة ارض الوطن، وتحارب الاستعمار والاعتداءات والمطامع التي يتعرض لها لبنان.**» وعلى الصعيد القومي، كان الامام واضحاً في اعلانه ان النضال من اجل فلسطين والقدس وكنيسة القيامة والمسجد الاقصى هو نضال ضد «**العنصر الذي كفر وطغى وقتل انبياء الله بغير حق، ووضع الاحاديث والتعاليم الكاذبة وتآمر على مئات الالوف من المؤمنين وحرّف الشرائع وشوه الحقائق وزور التاريخ واشاع الفساد والانحراف والميوعة ...**» اخيراً، على الصعيد الوطني، فإن أفواج المقاومة اللبنانية وحزب الله وكل الشرفاء في هذا الوطن الذين لم يعاصروا الامام، هؤلاء الشباب الذين يرابطون على الثغور وفي الوديان في الجنوب « **لا يحاربون من اجل الطغيان او في سبيل ثأر عائلي او قضية خاصة؛ يحاربون في سبيل الحق، يحاربون في سبيل الوطن ووحدته، في سبيل رفض التعامل اللبناني الاسرائيلي.** »

إن مشروع الامام الصدر الاستراتيجي يمكن اختصاره بكلمتين: التنمية والتحرير، لقد غُيِّب سماحته عن المسرح الوطني ليحمل دولة الرئيس نبيه بري الشعلة الوطنية التي اوقدها الامام. مقاوم في الجنوب وقائد في مركز القرار، يجهد الرئيس بري نفسه اليوم لأجل تعزيز الوحدة الوطنية على اساس ان يبقى لبنان وطناً نهائياً لجميع ابنائه. نحن معكم يا دولة الرئيس حتى « **لا يسقط لبنان في تجربة الشر الذي تمثله اسرائيل.** » وانكم خير المجاهدين في الدفاع عن نموذج وحدة الحياة الذي يمثله لبنان بمواجهة العنصرية التي تمثلها اسرائيل. ويتضح معنى هذا

التناقض بين لبنان والكيان الصهيوني العنصري في اعتبار الامام الصدر لبنان « **ضرورة لخلق الحوار بين اعضاء الجسد الانساني الكبير، وهو ايضاً ضرورة دينية ترفع عن الأديان تهمة التعصب وضرورة ثقافية. »**

في ثنايا فهمنا لأستراتيجية المقاومة في فكر الامام موسى الصدر تتضح لنا الجوانب المتعددة لصراعنا مع العدو الصهيوني: اقتصادياً، وثقافياً، وحضارياً، واجتماعياً، ونفسياً، وعسكرياً؛ وان فعالية مواجهتنا لهذا العدو تكمن بالعناية بكل هذه الابعاد مجتمعة. فمع الامام الصدر دعونا نفكر ببناء دولة الانسان، « **وعلى اساس ،»** والقول هنا لسماحة الامام محمد حسين فضل الله رحمه الله. **« ان تكون انسانيتنا مدخلاً لحقوقنا، ومدخلاً لواجباتنا، وقاعدة عيشنا في لبنان.»** اما السلاح فيبقى « **زينة الرجال »** الذين « **اعاروا جماجمهم لله»،** يحدوهم طموح متواضعٌ، أي ان يصبحوا فقط شركاء فاعلين في الوطن، فلم يحصل في التاريخ ان مقاومة حققت انتصارات متتالية على الاعداء ولم تطالب بحصة من الكعكة الطائفية. ويعود السبب في ذلك الى ان المقاومة هي تماماً كما ارادها سماحة الامام الصدر، مقاومة لأجل الوطن والانسان. ليت اللبنانيين قادرون على لمس عباءة الامام لوقف النزف المذهبي والتمزق الطائفي، والانصراف لبناء دولة اكثر مناعة، واكثر عدالة ، واكثر انسانية.